وصف المرأة في روايات الكاتبة اللبنانية حنان الشيخ

عنايت رسول *

لقد افتتح للأدب العربي آفاق جديدة ومختلفة ومتباينة إلى حد كبير من آداته المألوفة والطرق المعروفة عند الكتاب والشعراء بعد الاحتكاك بالثقافة الغربية على رأس القرن التاسع عشر. لقد تعرف عدد كبير من الكتاب والمفكرين على مفاهيم عصرية لم يكن لهم بها عهد من قبل. ونادوا نداء للإصلاح الشامل للمجتمع العربي في أوضاعه الجميعة من السياسة والتعليم والقيم الخلقية والفكرية. ولفت انتباههم وأنظارهم هذا الطيار الغربي وتسللت الأفكار الحديثة المتواردة إلى الفكر العربي وبدأ تشكل الوعي العربي ومن مظاهر هذا الانحياد أن صورة المرأة أخذت تتبدل في الكتب التنويرية والاصلاحية والأدبية. فهذا قاسم أمين يأتي بكتابه الشهير "تحرير المرأة المسلمة" فتثير ضجة وجدلا حول قضية المرأة ومكانته في المجتمع العربي من منظور ديني. عني قاسم أمين وأمثالهم بمناقشة وضع المرأة فنبث لسان أقلامهم عن الأوضاع التي تعرضت لها المرأة من الاضطهاد وما تعني من عقوق الرجل وتفوقه وسيادته عليها وسيطرة الرجل على الأنثى في العائلة والمجتمع وكيف أصبحت أسيرة الأعمال المنزلية والتقليدية. يرى قاسم أمين:

> "وما نحن فيه اليوم ليس في الطاقة البشرية تغييره في الحال ... لا أظن أنه يوجد واحد من المصريين المتعلمين يشك في أن أمته في

---

* الاستاذ المساعد بقسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا، أونتي بورة، جامو وكشمير.

احتياج شديد إلى الإصلاح شأنها ... إني أدعو كل محب للحقيقة أن يبحث معي في حالة النساء ... وأنا على يقين من أنه يصل وحده إلى النتيجة التي وصلت إليها؛ وهي ضرورة الإصلاح فيها." [١]

وبما أن الكثيرين من بين المفكرين المصلحين كانوا أدباء فإنهم استخدموا الأدب لا سيما القصة والرواية وسيلة لدعواتهم ومعرضا لأفكارهم الاصلاحية

وإن كاتبتنا حنان الشيخ تنتمي إلى بلدة لبنان وكان كتابها أسبق من نظرائهم في الوطن العربي. ومن الأعمال الروائية التي تعالج المرأة من لبنان هي "حواء الجديدة" لنقولا حداد (١٨٧٢-١٩٥٣) و "فتاة مصر" ليعقوب صروف (١٨٥٢-١٩٢٧) وكذا ما كتبه جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١) صاحب "الأجنحة المتكسرة"(١٩١٢). ومن أبرز الكاتبات الأخرى اللاتي عالجن المرأة في أعمالهن زينب فواز في "حسن العواقب"(١٨٩٩) ولبيبة هاشم في "قلب الرجل"(١٩٠٤) وعفيفة كرم في "بديعة و فؤاد" (١٩٠٦). ومن جيل الكاتبات التالي ليلى بعل بكي في "أنا أحيى" (١٩٥٨) ومنى جابور في "فتاة تافحة" (١٩٦٢).[٢]

حنان الشيخ الكاتبة اللبنانية:

نقف هنا برهة للتعرف على الكاتبة اللبنانية حنان الشيخ قبل أن نخوض في رواياتها ونبحث عن صورة المرآة ووصفها عند حنان.

أما حنان الشيخ فهي من مواليد جنوب لبنان في جبل عامل من بلدة أرنون عام ١٩٤٣ الميلادي. وأنهت دراستها في القاهرة. وتنقلت بين السعودية ولندن والقاهرة وعاشت في بلدان كثيرة. وكتبت أولى رواياتها في عمر التاسعة عشر. ولفترة من الزمن عملت في جريدة النهار ومجلة الحسناء اللبنانية. ونالت صيتا في البلاد العربية وخارجها. ترجمت رواياتها إلى إحدى وعشرين لغة. وتعيش الآن في لندن. ومن مؤلفاتها:

١. انتحار رجل ميت

٢. حكاية زهرة
٣. مسك الغزال
٤. فرس الشيطان
٥. أكنس الشمس عن السطوح
٦. امرأتان على شاطئ البحر
٧. بريد بيروت
٨. إنها لندن يا عزيزي
٩. اوراق زوجية
١٠. حكايتي شرحٌ يطول
١١. عذارى لندنستان

وصف المرأة في روايات حنان الشيخ:

جاء في لسان العرب تحت مادة (وصف) معان متعددة

أ - وصف الشيء له وعليه وصفا وصفة : حلّاه وقيل : الوصف المصدر ، والصفة الحلية ، ويبدو كما يرى الباحثة حنان العمائرة من هذا المعنى أن للوصف وظيفة بلاغية جمالية وهي تزيين والتحلية وهذا يجعله يحمل دلالة إضافية للنص وهي دلالة التحلية والجمال.

ب – وصف المُهرُ: توجه لحسن السير كأنه وصف الشيء. ويقال للمهر إذا توجه لشيء من حسن السير: قد وصف معناه أنه قد وصف المشي. يقال مهر حين وصف. ووصف المهر إذا جاد مشيه. [٣]

يرى الباحثة حنان العمائرة أن الوصف ينهض عادة بإبلاغ

"معرفة ما تزيد من انتباه القارئ إلى عنصر دلالي في النص، فالوصف: أسلوب كتابة وخطاب له بنية شكلية وطرائق اشتغال داخلي، وله بنية دلالية متينة العلاقة بسياقها السردي والمقاصد

التواصلية " [٤]

يتضح لنا أن مادة وصف تحمل دلالات متعددة في المعجم اللغوي، وبتعدد الوظائف، غير أنها تبقى متمحورة حول معنى الإبانة والكشف والإظهار.

وإذا تأملنا في روايات حنان الشيخ نجد أن لها رواية استقبلت استقبالا حافلا وهي "حكاية زهرة" (١٩٨٠) تركز فيها الكاتبة على "زهرة" بطلة الرواية وتتبع مراحل حياتها بما تتضمن من مظالم تتعرض لها الفتاة في المجتمع العربي غالبا سواء من تفضيل الأخ عليها طفلة و صبية ، أو من حيث اعتبارها وحدها جانية على شرف العائلة مهما كانت الملابسات يبدو أن فضح الرواية لمثل هذه المواقف تفصيلا بالإضافة إلى صدورها في وقت تتنامى فيه قضية المرأة وظهور حركات ذات تأثير قوى في دوائر المثقفين والمفكرين عامة كحركة النقد النسائي وغيرها، كان لكل ذلك أثره في اكساب الرواية مزيدا من الأهمية ومن اهتمام الدارسين بها سواء في اللغة العربية أو في اللغة الانجليزية وبعض اللغات الأوروبية الأخرى.

زهرة فتاة لبنانية من الجنوب حرمت الجمال، وجهها مليء بالبثور وساقاها مقوستان وهي من هذه الزاوية تذكرنا بنفيسة في رواية نجيب محفوظ "بداية ونهاية". وهي على وعي تام بتفضيل أمها وأبيها لأخيها رغم تفاهته وكسله وبلادته ورغم جدها وذكائها لكن ما يرعب "زهرة" حقا هو بطش أبيها بأمها وبها أيضا ، لأنها لا تعترف له بخيانة أمها فأم زهر تكره أباها وتخونه مع رفيقها أمام ابنتها أحيانا وهي تصر على اصطحاب زهرة معها لكي تؤكد للزوج بأنه من غير المعقول أن تحدث خيانة في وجود زهرة ومع ما يحدث لزهرة من أبيها نتيجة خيانة الأم وصمتها هي ، فإن الأم لا تكافئ ابنتها بمثقال ذرة من رأفة، بل كثيرا ما تعير بدمامتها التي لن تغرى أحدا أبدا بالزواج منها وهي كذلك تختص أخاها بأطايب الطعام والبنت المسكينة تلاحظ ذلك وغيره ويثور داخلها عليه. وهي تهدد

بنظرات قاسية متوعدة وأبوها يشبعها ضربا حتى لا تبوح لابيها بما تعرف. والنتيجة أن زهرة تحت كل هذه الضغوط تتحول إلى شخصية انطوائية مريضة نفسيا، وتقع فريسة سهلة لرجل متزوج يعتدى عليها وتحمل منه وتجهض نفسها مرتين ومع ذلك فهو يمارس الجنس معها فلا تشعر بأي متعة وكأنه يمارسه مع امرأة غيرها.

وتمر أحداث الرواية تصور لنا ما يعاني زهرة من الاضطهاد لأنها مرأة. إن تخصيص الرواية كلها للبطلة ورصد مشاعرها وأحاسيسها وتكوينها النفسي خطوة بخطوة كلها أسهم في وصف زهرة وصفا دقيقا من تيار الشعور واللمسات الواقعة الدالة على ظروفها القاسية.

قد أطلنا الحديث عن الرواية حكاية زهرية لأنها تحتل مكانة خاصة من أعمالها الإبداعية. نلتفت الآن إلى أعمالها الأخرى فهي تمثل بجانب إلى القضايا الأخرى قضايا المرأة الخاصة. وتمثل في وصفها حاجة المرآة للحرية والعشق والمساواة وغيرها وتلامس هموم المرأة في أوصافها الروائية. فإن أوضاع المرأة هي المعيار الأمثل على مدى تقدم المجتمع على الصعيد الاجتماعي والسياسي والحضاري. [٥]

قد سعت حنان الشيخ في رواياتها تقديم نماذج وصفية تبين معاناة المرأة في المجتمع الذي تعيشه؛ فهي تصف مضار زواج الفتيات المبكر من خلال سيرة كاملة في رواية حكايتي شرح يطول التي أجبرت على الزواج من زوج أختها المتوفاة، زوجوها وهي ابنة تسع سنوات وقد كانت النتيجة المعاناة؛ تقول (تسود الدنيا فجأة في نظري واشعر بالغثيان وأنا أقفز على البنات مع بنات الحي ... منذ تلك الحادثة وأنا آخذ حذري أكتفي بالتفرج على البنات اللواتي كن من عمري يقفزن على الحبل)

كشفت الرواية في المقطع السابق عن مدى الظلم الذي وقع على الطفلة

كاملة فقد منعها الزواج المبكر من اللعب كباقي البنات بسبب الحمل. ذلك التغيير الجسدي الذي طرأ على هذه الطفلة فقد وصفت بداية هذه التغييرات كاسوداد الدنيا والشعور بالغثيان.

فأوصاف الظلم للمرأة في روايات الشيخ متعددة ليس من المجتمع فحسب وإنما من الأم التي هي مثيلتها في الجنس فها هي زهرة تصف تمييز أمها لأخيها أحمد كما مر ذكره على الطول.

ويبدو في الرواية فرس الشيطان أن وصف ظلم المرآة تعزز بشكل واضح في المجتمع الصحراوي حين عرضت سارا عدة مشاهد وصفية لظلم المرأة ومن ذلك:

- وصف المرآة التي لا تملك حق اختيار الزوج. فها هي لؤلؤة تدفع إلى رجل لا تعرفه ليصبح زوجها؛ تقول سارة (لؤلؤة امرآة دفعت؛ دفعتها النسوة، أمها خالاتها وجيرانها إلى غرفة الزوج لم تكن قد تعرفت إلى رائحته إلى أنفاسه إلى لون عينيه وإلى سنواته)
- وصف عدم الاهتمام بقيمة المرآة الفكرية والمعنوية أيضا.
- وصف جهل المرأة التي لا تعرف أدق قضايا جسدها.

إن مستوى الجهل وصل لعدم معرفة الحاجات الإنسانية والغرائز الجسدية وهذا أشد درجات الظلم للإنسان سواء أكان رجلا أم امرآة والجهل لا يتوقف على مستوى الجسد فقط. فبينت الشيخ في أوصافها كيفية تعايش المرآة مع بيئتها، فمنهن من تعايشت مع معطيات البيئة وحاولت أن تتفاعل مع البيئة الجديدة ومنهن من رفضت هذه البيئة. وفي بريد بيروت وصفت قوة المرآة ضمن ظروف الحرب الأهلية، وبعيدا عن بيئة المجتمع العربي وصفت في إنها

لندن يا عزيزي انفعالات النساء العربيات في البيئة الغربية.

المراجع:

١. قاسم أمين ، تحرير المرآة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ص ٠٦.

٢. Cf. Ed. Radwa Ashour, Arab Women Writers – A Critical Reference Guide 1873-1999, American University Press in Beriut 2008

٣. راجع : حنان إبراهيم العمائرة ، الوصف في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠١١ ص ١٤

٤. السابق – ص ٢١١

٥. ماضي شكري عزيز: الرواية والانتفاضة نحو أفق أدبي ونقدي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ٢٠٠٥ ص ٢١٧

* * *